مجلة جامعة الانبار للغات والآداب-العدد ١٢ -السنة ٢٠١٣

أدب السفارات في الأندلس بين الواقع والتغيير

م.د. بشار خلف الحويجة -كلية الآداب -جامعة الأنبار

المستخلص

يهدف هذا البحث الى معرفة اهم واظهر السفارات او الرحلات الممولة من الحكومات الاندلسية الى بلاطات مسلمة وغير مسلمة بشكل رسمي وبمهمات دبلوماسية تنطوي بالدرجة الاولى على الجانب السياسي أكثر من غيره من الجوانب الاخرى، وكذلك معرفة أبرز سفرائها. فضلا عن دراسة الادب الذي وثق تلك السفارات من خلال دورة ووظيفته المبتغاة، وحقيقة العلاقة بينه من حيث هو مؤثر وبين النفس الانسانية من حيث هي متأثره ، وطبيعة اثارة الشعرية والنثرية التي تراءت امامنا من خلال طابعين: الاول طابع فني مؤثر حاول فيه الاديب السفير الارتقاء بأدبة نحو تحقيق اهدافه ومطالبه وانعكاس ذلك كلة على الواقع السياسي في الاندلس. والثاني طابع وصفي وثق فيه الاديب السفير واقع سفارته واحداثها بشكل لم يرتق فيه بأدبه الى تغيير واقعه المعيشي.

Abstract

The aim of this paper is to introduce the most important envoys and emissaries financed officially by the Andulysian states to other Islamic and Non-Islamic kingdoms. These emissaries and envoys are basically political but they had a literary side. This paper studies the literature which documents these emissaries and envoys by highlighting its function in thes occasions. The poetic and prose works of these occasions had two sides: Artistic purpose employed by the ambassador to deliver his job and descriptive side used by the man of letter to document his mission.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين أجمعين .

وبعد : فإن الأدب الأندلسي وأثره في المجتمع كان وما يزال محوراً لكثير من الدراسات ، وما تزال آفاقه رحبة ومجالاته واسعة وأبوابه مشرعة لكل ما من شأنه أن يحدد أو يُسهم في تحديد هوية ذلك الأدب والارتقاء به نحو تحقيق أهدافه .

ولعّل موضوع السفارات في الأندلس أحد تلك المحاور التي هي بحاجة إلى مزيد من التتبع والاستقراء ؛ لما لها من أهمية في الواقع الأندلسي عبر مسيرته الطويلة . فقد أعطت هذه السفارات الأدب العربي عموماً والأندلسي خصوصاً قدراً كبيراً من الحيوية والثراء ، إذ كان لها ((شأن في مجال الأدب والفلسفة والعلم ، وأسهمت في النهوض بالأدب ، وغنيت مادة الرحلات بالأدب ، بما فيها من طرائف تأخذ بالألباب وتسحر القلوب وتشحذ الأخيلة . مما جعل من لغة الكتابة السفرية الجافة أحياناً منهلاً عذباً صافياً للخلق والإبداع على ما فيه من طريف الحكايات والعادات ومن جميل وصف للممارسات والطقوس وغريب التصاريف والسلوك وعناصر جذب وخامةِ تشويقٍ ترق لها القلوب بشدة[1])) . وهو أمر أتاح

لأدب الرحلات والسفارات أن يكون مصدراً مهماً لكثير من النصوص الأدبية ، أو قلْ إنه أدخل ضمن فنون الأدب العربي[٢] .

ولئن كانت وظيفة الأدب تتمثل بأن الأديب أو الشاعر ((يحرّك في رفاقه الرغبة لتحقيق ما يمكن تحقيقه ولكنه ما زال غير محقق أي رفع الواقع إلى مثالية ... إن وظيفة الشاعر مازالت - وكما كانت - تكمن في جرّ الشعور من العالم الثابت إلى عالم الخيال ، وهذا العالم بالطبع غير منفصل عن العالم الواقعي ، بل هو العالم الحقيقي بعد أن جرّدناه من صفات العفوية . فالشاعر يملك بدرجة عالية قابلية يغوص بها تحت السطح ، ويتقبل الناس بلهفة هذه الصور؛ لأنها تعبر عن مشاعرهم التي لا يستطيعون التعبير عنها[٣])). أو كما قال الناقد (كرومبي) : ((ليس التعبير عن فكرة في الأدب من أجل الفكرة نفسها ؛ بل لأجل إيصال التجارب . وليس الغرض من تأليف الأدب وإنشائه أن يكون جميلاً ، وإنما نقضي له بالجمال إذا نجح في غرضه الذي يرمي إليه . والشعر ضرب من ضروب النشاط البشري الأخرى ، إذ لا بُدّ للشعر من وظيفة ، والعبارة المشهورة الفن لأجل الفن قد يراد بها أنّ الفن شيء يستحيل تقديره إذا حكمنا عليه بأمور خارجة عن طبيعة الفن . أما الذين يريدون أنْ ليس للفن وظيفة يؤديها في الحياة ، فتصبح العبارة بهذا المعنى الشائع باطلة كل البطلان[٤])) فقد جاء موضوع بحثنا الموسوم (أدب السفارات في الأندلس بين الواقع والتعبير) ؛ ليسهم في بعث النص الأدبي الذي رافق السفارات من رقدته وتوثيقه بعد أن كان – في كثير من أحيانه – ظلاً تابعاً للدراسات التاريخية ، فضلاً عن التعريف بأهم الرحلات والسفارات الأندلسية التي كثرت وتنوعت بتنوع أغراضها ودوافعها وتعدد أنساقها الفكرية ، فمنها ما اتجه وجهة دينية أو ما تعرف بالرحلة الحجازية كرحلة ابن جبير(محمد بن جبير الكناني ت ٦١٤ هـ) ، أو رحلة البلوي (خالد بن عيسى البلوي من رجال القرن الثامن الهجري) التي أسماها (تاج المفرق بتحلية علماء المشرق) ، ومنها ما اتجه وجهة علمية إما للأخذ والتتبع والاستزادة أو الاتصال بعدد من أعلام البلدان الأخرى أو ما تعرف بالرحلة العلمية كرحلة القلصادي (علي بن محمد البسطي الشهير بالقلصادي ت ٨٩١ هـ) ، ومنها ما اتجه وجهة عجائبية كرحلة أبي حامد الغرناطي (محمد بن عبد الرحيم القيسي) وله أكثر من كتاب في غرض رحلته نذكر من ذلك (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) ، ومنها ما اتجه وجهة رسمية دبلوماسية تصب في مصلحة الدول والحكومات الأندلسية أو ما تعرف بالرحلة السفارية – وهي ما نحن بصددها في دراستنا هذه – كسفارات معينة سيتم ذكرها لاحقاً . وهناك العديد من الأغراض نصَّ عليها بعض الباحثين والدارسين لسنا بحاجة إلى تعدادها واستقصائها[٥] ؛ لعدم اتساقها هي والرحلات المنطلقة بدوافع شخصية أو اجتهادية ذوات الأغراض الدينية والعلمية والعجائبية المتقدم ذكرها مع طبيعة دراستنا التي اقتصرت على السفارات الممولة من الحكومات الأندلسية بشكل رسمي وبمهمات دبلوماسية تنطوي بالدرجة الأولى على الجانب السياسي أكثر من غيره ومدى معالجته للواقع الأندلسي المعيش .

ونرى أن الحكومات الأندلسية بسفاراتها هذه كانت قد حققت تميزاً مرتين : تجلى التميز الأول بالنتائج الملموسة والفوائد الإيجابية التي حققتها بعض هذه السفارات والتي استطاعت من تغيير بعض من الواقع الأندلسي إلى واقع أفضل حالاً . وتميز آخر تمثل بحسن اختيار الحكومات الأندلسية لسفرائها إذ انتدبوا أفاضل أدبائهم وصفوة علمائهم فكان هؤلاء الأدباء السفراء بحكم جمال إسلوبهم وإبداعهم الفني ودهائهم سبباً في تقريب وجهات النظر وتحقيق بعض أغراض هذه السفارات ومهماتها المصيرية . وقد اقتضت الضرورة أن نقف عند أهمهم وهم كل من :

أولاً : يحيى الغزال (يحيى بن حكم البكري المشهور بلقب الغزال ت ٢٥٠ هـ) .
ثانياً : ابن الأبار (أبي عبدالله بن محمد بن الأبار ت ٦٥٨ هـ) .
ثالثاً : ابن الحاج النميري (إبراهيم بن عبدالله بن محمد ت ٧٦٨ هـ أو بعد ذلك) .
رابعاً : لسان الدين بن الخطيب (محمد بن عبدالله بن محمد ت ٧٧٦ هـ) .
خامساً : ابن زمرك (محمد بن يوسف الصريحي ت بعد ٧٩٧هـ) .
سادساً : شاعر لم تذكر لنا المصادر التاريخية اسمه سوى أنه عاش في القرن التاسع الهجري .

وقد أدّى كل واحد من هؤلاء الأدباء سفارة أو أكثر إلى بلدان مختلفة وبأغراض متنوعة . غير أننا ومن خلال استقرائنا وتتبعنا لسفارات الأندلس من حيث قيمتها التاريخية والوثائقية والأدبية وجدنا تباينا ملحوظاً على مستوى الممارسة والتأليف ، فبعضها كان قد حظي باهتمام كبير من لدن الدارسين والباحثين كسفارتي الغزال[٦] وابن الخطيب[٧] ، وبعضها الآخر لم يحظَ بما يستحقه من البحث والدراسة اللهم إلا في مواضع محددة وصفحات معدودة كسفارات ابن الحاج وابن زمرك والشاعر المجهول .

ولئن بحثنا عن تفسير نراه محتملاً لخلو هذه السفارات من اهتمام الدارسين والباحثين المحدثين – على وجه التحديد – فإن ذلك لا يعدو أن يكون ناتجاً من قلة ما تحدثت به المصادر والمراجع عن هذه السفارات إلا في مواضع وحالات معينة[٨] .

وسواء أنال أدب السفارات في الأندلس حقه في البحث والتأليف أم لم ينل فإن آثاره من شعر ونثر قد بدت واضحة للعيان من خلال مظهرين :

الأول : مظهر فني مؤثر ارتقى فيه الأديب السفير بأسلوبه الفني الرفيع إلى أعلى درجات التأثر والحجة والإقناع ؛ لما فيه من حسن في الصياغة وقوة في الأداء وتأثير في العاطفة .

والآخر : مظهر حكائي سردي وثّق فيه الأديب السفير وقائع تلك السفارات وما دار فيها من أحداث ومشاهد وحقائق وخطرات . فتارة كان توثيقه بأسلوب تقريري وصفي ، وتارة أخرى كان توثيقه بأسلوب أدبي نقدي طريف وساخر . وهذا ما سنتلمس آثاره بشكل واضح عند الشاعر يحيى الغزال في سفارته التي من الممكن أن تعد أول سفارة أندلسية على الصعيد الرسمي .

أولاً : سفارة يحيى الغزال :

إن أول ما يلفت الانتباه بشأن هذه السفارة هو اختيار سفيرها والاختلاف في اتجاهها . فأما اختيار سفيرها دون غيرهِ من أدباء القرن الثالث فإنه لم يأتِ من فراغ البتة ؛ إذ كان الغزال ((صوتاً اجتماعيا عالياً لا يستنكف عن الجهر بالرأي ولا يوارب ولا يهادن ، ويسمي الأشياء بأسمائها ولو كانت التسمية جارحة[٩])) . فضلاً عن أنه شاعر لديه حدة الخاطر وبديهة الرأي ، وتمكُّن بأساليب التعبير وتمرُّس بأساليب الدخول والخروج من كل باب من أبواب الكلام[١٠] .

وأما الاختلاف في اتجاهها فقد أشار بعض الباحثين إلى أن الأمير عبدالرحمن الأوسط (أمير قرطبة ت ٢٣٨ هـ) كان قد أرسل الغزال إلى الملك توفلس (إمبراطور القسطنطينية) يحمل إليه كتاباً رسميا وهدايا ؛ وذلك ردا على سفارته التي وصلت إلى قرطبة في زيارة رسمية[١١]. وقد احتفظ المقرّي في كتابه(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) بوصف موجز لهذه السفارة[١٢].

في حين أفاد باحثون آخرون بأن هذه السفارة كانت إلى بلاد المجوس (النورمان : أحد بلدان شمال غرب أوربا وتحديداً الدانمارك) ولم تكن إلى القسطنطينية ؛ وذلك تلبية لنداء ملكها من أجل عقد صلح مع العرب المسلمين بعد هزيمة قواته البحرية في إحدى غاراتهم على بلاد الأندلس[١٣] .

ولئن لم يحصل اتفاق بين الباحثين بشأن الاتجاه الذي كان الغزال قد قصده ، فإن هذا يشير إلى أهمية هذه السفارة من الناحيتين التاريخية والأدبية . ويشير كذلك إلى أن وجه الأندلس المشرق كان قد غطى مشارق الأرض ومغاربها من الناحيتين الجغرافية والحضارية . وقد تنتج من هاتين الإشارتين إشارة ثالثة تزيد من احتمالية أن يكون الغزال قد قام بسفارتين مختلفتين إلى بلدين مختلفين هما : القسطنطينية في المشرق والنورمان في غرب أوربا ؛ وذلك بناءً على ما قدّمه باحثو الاتجاهين من أدلة مؤثرة . فضلاً عن ترجيح عدد من المهتمين بالشأن الأندلسي بأن يكون الغزال قد قام بسفارتين مختلفتين وليست سفارة واحدة كالأستاذ محمد عبدالله عنان[١٤]، والدكتور إحسان عباس[١٥] .

وأياً كان اتجاهها فإن رحلة الغزال السفارية هذه حفلت بجانب أدبي ثر ، تمكن فيها سفيرها – من خلال نصوصه الأدبية – من أن يثري سفارته تميزاً وحيوية ونشاطاً فكرياً ، ويضفي عليها طابعاً شعورياً مهماً ، وأن يكون فيها عنصراً مؤثراً وفاعلاً من جهتين : من جهته من حيث إيمانه بقيمة أدبه ، ومن جهة مجتمعه من حيث شعوره بحاجته الملحة إلى هذا الأدب . وبمعنى آخر أن أدب الغزال كان متسماً بطابعين هما :

طابع ذاتي : حاول من خلاله الغزال إثبات شخصيته بما كان يشعر به في سرائه وضرائه وبؤسه وسعادته .

طابع موضوعي : استشعر فيه الغزال المسؤولية الجسيمة التي ألقيت على عاتقه في تغيير المسار السياسي في الأندلس عن طريق إيجاد المعابر التي توصله إلى كل ما من شأنه أن يمرّر غاياته ويحقق أهدافه ومآربه .

ولكل طابع من هذين الطابعين نصوصه الأدبية وسماته الفنية وأساليبه ، وهي سمات وأساليب تكاد تكون مشتركة غلب عليها السرد القصصي والوصف والنقد والنظرة الساخرة ، وكأن أدبه عبارة عن خطرات ((كانت تدفعه إلى نظم ما يريده ، وكأنه يلقي خبراً أو يرسل سهماً أو يشيع حلماً أو ينفث آهة ، وكأن الينابيع الوجدانية كانت تشح عليه أحياناً وتجود عليه أخرى[١٦])) .

أما النصوص الأدبية الخاصة بهذين الطابعين فهي كثيرة ولسنا بحاجة إلى تعدادها والخوض في تفصيلاتها[١٧] ؛ لأن أيدي الباحثين كانت قد تناولتها – في غير مرة – لذا فإن ذكرها هنا يعد ضرباً من ضروب التزيّد والتكرار . غير أننا سنأخذ بنظر الاعتبار الشواهد التي رأينا أن من الضرورة بمكان التركيز عليها ؛ لكونها الوسيلة التعبيرية الأولى للغزال نحو تحقيق أهدافه ، وهي لا تعدو أن تكون وصفاً لمشهدٍ ما كان الغزال قد عاينه أو أحسّ به ، أو عرضاً لفكرة معينة وتوثيقها .

فمن هذه الشواهد والوقفات التي تدل على ذكائه وفطنته وقفة تمثلت بكلمته التي حيّا من خلالها ملك النورمان . فبعد أن كان من جملة مراسم مقابلة الملك أن يركع له السفير ومن معه من منفذ ضيق منخفض يضطره إلى الركوع أدرك الغزال بسرعة ولباقة حيلته ، فجلس وزحف إلى أن استوى واقفاً أمام الملك ، فحيّاه بتحية طيبة نالت استحسانه لحسن مدلولها وفصاحة ألفاظها ودقة معانيها قائلاً : ((السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمّه مشهدك ، والتحية الكريمة لك ، ولا زلت تُمتّع بالعز والبقاء والكرامة الماضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة ، المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم الذي كل شئ هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه المرجع . ففسّر له الترجمان ما قاله فأعظم الكلام وقال : هذا حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهاتهم ، وعجب من جلوسه إلى الأرض وتقديمه رجليه في الدخول : وقال : أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه ، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه[١٨])) .

إن أبرز ما نستنتجه في حدود هذا الموقف وما سيتلوه من مواقف أدبية هو أن الغزال كان يحسن المداخل والمخارج الأدبية ، ويتحين الفرص واحدة تلو الأخرى بما يراها مناسبة لتحقيق أهدافه ومبتغاه . ومن هذه المداخل مدخلان رئيسان : الأول منضوٍ تحت لواء الطابع الذاتي متمثل بكلمته المتقدمة التي ألقاها بين يدي ملك النورمان ، فضلاً عما تركه في نفوس العلماء والمفكرين المقربين من الملك من أثر فعال من خلال مناقشاته معهم ومساجلاته . وهذا ما نجد له صدىً عند ابن دحية في كتابه (المطرب من أشعار أهل المغرب) في قوله ما نصه : ((وللغزال معهم مجالس مذكورة ومقاوم مشهورة ، في بعضها جادل علماءهم فبكتهم ، وفي بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم[١٩])) .

والمدخل الآخر منضوٍ تحت لواء الطابع الموضوعي ، إذ توغل فيه الغزال إلى أعماق البلاطين القسطنطيني والنورماندي – بحسب الروايات التي وصلت إلينا – عن طريق توطيد صلات المودة التي دارت بينه وبين ملكة الروم (نود) فنال بأسلوبه الطريف ودهائه وحسن صنيعه إعجابها . مما حدا هذه العلاقة على أن تكون مدخلاً حقيقياً ومباشراً لتحقيق أهدافه وأهداف سفارته السياسية .

ومما ساعد على تقوية أواصر هذه العلاقة مواقف الغزال التي مزج فيها بين الأدب والسياسة ، والتي ساعدت وسهلت كثيراً من مهمته أنه عندما سألته الملكة عن سبب إدمان نظره إليها أجاب ببراعة عالية بقوله :((ما هو إلا أني لم أتوهم أنّ في العالم منظراً مثل هذا ، وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم فلم أرَ فيهن حسناً يشبه هذا[٢٠])). مما عزز ولعها به بحيث أنها لم تكن لتصبر عنه يوماً حتى يتوجه إليها ويقيم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم[٢١] . وقد أكد الغزال – في غير مناسبة – حقيقة ما اكتسبه من الملكة من مكاسب سياسية أسهمت بإنجاح سفارته ، نذكر منها أنه عندما سأله تمام بن علقمة (ت ٢٨٣هـ) عن حقيقة العلاقة التي كانت بينه وبين الملكة وعن حسنها وجمالها فأجابه بقوله : ((وأبيك لقد كانت فيها حلاوة ، ولكني اجتلبتُ بها القول محبتها، ونلتُ منها فوق ما أردت[٢٢])) .

ومن الشواهد الأدبية التي تدل على ما تمتع به الغزال من مكانة عند الملكة أنها كانت قد سألته يوماً عن سنه فقال مداعباً لها : ((عشرون سنة ، فقالت للترجمان : ومن هو من عشرين سنة يكون بهذا الشيب ؟ فقال للترجمان : وما تنكر من هذا ؟ ألم ترَ قط مُهراً ينتج وهو أشهب ؟ فضحكت نود وأعجبت بقوله[٢٣])) . فقال في ذلك :

كلفت يا قلبي هوىً متعباً غالبت منه الضيغم الأغلبا
إني تعلقتُ مجوسيةً تأبى لشمس الحسنِ أنْ تغربا
أقصى بلاد الله في حيث لا يُلفي إليه ذاهبٌ مذهبا
يا نود يا تود الشباب التي تطلع من أزرارها الكوكبا
يا بأبي الشخص الذي لا أرى أحلى على قلبي ولا أعذبا
إنْ قلتُ يوماً إنّ عيني رأت مشبههُ لم أعدْ أنْ أكذبا
قالت أرى فوديه قد نوّرا دعابة توجبُ أنْ أدعبا
قلتُ لها ما باله إنه قد ينتجُ المهرُ كذا أشهبا
فاستضحكتْ عجباً بقولي لها وإنما قلتُ لكي تعجبا[٢٤]

وعندما فُسّر لها هذا النص الشعري ((ضحكت منه وأمرته بالخضاب ففعل ذلك الغزال ، وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب ، فمدحت خضابه وحسّنته عنده[٢٥])) . فقال في ذلك :

بكرتْ تُحسّن لي سوادَ خضابي فكأنّ ذاك أعادني لشبابي

ماالشيبُ عندي والخضابُ لواصفٍ إلا كشمسٍ جُلّلتْ بضبابِ
تخفى قليلاً ثم يَفْشعُها الصّبا فيصير ما سترت به لذهابِ
لا تنكري وضحَ المشيبِ فإنما هو زهرةُ الإفهام والألبابِ
فلديّ ما تهوينَ من شأن الصّبا وطلاوة الاخلاق والآدابِ[٢٦]

ويظهر أن تأثر الملكة بالغزال وشعره لم يتوقف عند هذا الحد من الوصف والتصوير ، وإنما دفعها هذا التأثر إلى أن قامت بزيارته بين الحين والآخر ، فبادلها بشعر وثّق تلك الزيارات[٢٧].

إن هذه النصوص الشعرية ومن قبلها المواقف الأدبية لدليل واضح على إثراء سفارة الغزال وإغنائها بجوانب فكرية وأدبية زيادة على الجوانب السياسية . إذ كان دور الأدب فيها دوراً حيوياً ومهماً ذلل كثيراً من الصعاب وأسهم إسهاماً فاعلاً في تحقيق ما كان مرجواً من هذه السفارة . وقد نتج عن ذلك الدور الذي قام به الأدب أنْ عاد السفير الشاعر (الغزال) – بحسب ما يراه صاحب المُغرب في حلى المَغرب – بذخائر ملوكية[٢٨] ، فضلاً عن إسهامه بـ ((نشأة البحرية الأندلسية بأسطولها الكبير في بحر الشمال . الأمر الذي ساهم في توثيق العلائق التجارية مع بلدان أوربا الغربية ، وانفتحت أمام العرب المسلمين آفاق أوسع وعلاقات بدول أبعد لا تجاورهم بحدود متاخمة ، بل تربطهم بها علاقات متينة ، ترعاها المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة[٢٩])).

ثانياً : سفارة ابن الأبار القضاعي :

ومن السفارات الأندلسية المهمة التي تركت بصمات واضحة على الواقع السياسي في الأندلس سفارة ابن الأبار القضاعي إلى بلاط تونس . فبعد أن حوصرت مدينة بلنسية من النصارى في بدايات القرن السابع الهجري ، واستشعر أهلها وحكامها بخطورة ذلك أوفد أميرها (زيان بن مردنيش) كاتبه الشاعر ابن الأبار إلى ابن زكريا بن أبي حفص (سلطان تونس) يستصرخه ، فأنشد بين يديه سينيته المؤثرة . يقول في أولها :

أدركْ بخيلِك خيل الله أندلسا إنّ السبيلَ إلى مَنجاتها درسَا
وهبْ لها من عزيز النصر ما التمستْ فلم يَزلْ منك عزّ النصر مُلتمسَا
وحاشِ مما تعانيه حشاشتها فطالما ذاقت البلوى صباحَ مسَا
يا للجزيرة أضحى أهلُها جزرا للحادثات وأمسى جدّها تعسَا
في كل شارقةٍ إلمام بائقةٍ يعود مأتمها عند العِدى عُرُسَا
وكل غاربةٍ إجحاف نائبةٍ تثني الأمانَ حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالتْ مقاسِمُهم إلا عقائلها المحجوبة الأنُسا
وفي بلنسيةٍ منها وقرطبةٍ ما ينسفُ النفسَ أو ما ينزفُ النَفسا
مدائن حلّها الإشراك مبتسماً جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيّرَ العوادي العابثات بها يستوحش الطرف منها ضعف ماأنسا[٣٠]

وبعد أن جسّد ما آلت إليه حال الأندلس من ضعف وهوان ، وما آل إليه وضع بلنسية من أمس مشرق إلى حاضر مظلم بائس ، يتوجه بالخطاب إلى أبي زكريا مستغيثاً إياه ومستدراً عطفه بقوله :

صِلْ حبلَها أيها المولى الرحيم فما أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسَا
وأحْي ما طمستْ منه العداة كما أحييتَ من دعوة المهدي ما طُمسا

ثم يتابع مدحه للسلطان بشكل كان كافياً لأن يؤثر في مشاعره وأحاسيسه ، فكانت استجابة السلطان - على وفق ما أحدثته هذه القصيدة في نفسه من أثر كبير - حاضرة أو كما وصفها المقرّي سريعة ، إذ ((هزّت هذه القصيدة من الملك عطف ارتياح ، وحركت من جنانه أخفض جناح ، ولشغفه بها وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها ، فجاوبها غير واحد[٣٢])). وقد أيّد الأستاذ محمد عبدالله عنان ما ذهب إليه المقرّي من خلال قوله ما نصّه : ((كان لهذه القصيدة المبكية التي ما زالت تحتفظ حتى يومنا هذا برنينها المحزن .. أبلغ الأثر في نفس الأمير أبي زكريا الحفصي ، فبادر بتجهيز أسطول شحنه بالسلاح والأطعمة والكسى والأموال ، يتألف من اثنتي عشرة سفينة كبيرة وست صغيرة .. وتقدر الرواية الإسلامية قيمة ما شحن بهذا الأسطول بمائة ألف دينار من الذهب ، وهي قيمة لها خطرها في ذلك العصر[٣٣])) .

ولو لم تكن البيئة الأندلسية رخوة بحيث هيأت جميع السبل والوسائل لهذا الحصار لأن يكون قويا لكان تحرير بلنسية من حصارها معقوداً بلواء هذه القصيدة . ولكن مهما يكن أمر هذه التداعيات ، فإن القصيدة تمكنت في أن ((تثير في نفس قارئها أسىً وحسرة للذكريات التي ترتبط بها ، والعاطفة الدينية التي توقظها الحوادث المؤلمة التي أصابت المسلمين في تلك البلاد[٣٤]))، فضلاً عن إعطاء الشعر الذي وثّق تلك السفارة قيمته الكبيرة وهويته الحقيقية في التأثر والتأثير ومدى انعكاسه على الواقع السياسي في الأندلس .

ثالثاً : سفارة ابن الحاج النميري :

ومن السفارات الأندلسية الأخرى التي كان فيها الأدب مشاركاً وموثقاً أهم أحداثها ومشاهدها وفصولها سفارة الأديب ابن الحاج النميري إلى المغرب العربي بصحبة أبي عنان فارس المريني (سلطان المغرب ت ٧٥٩ هـ) في منتصف القرن الثامن الهجري وتحديداً سنة (٧٥٨ هـ) وهي رحلة جاءت على وفق مطالب سياسية ((قصد منها السلطان أبو عنان المريني أن يوطد سلطته ويقضي على فتن الأعراب التي كانوا يقومون بها ويزعجون السلطة والأمن[٣٥])) . واجتماعية وثقافية سجّل من خلالها ابن الحاج وصفاً مباشرا لمحيط رحلته المتمثل بالمغرب الأقصى والأوسط والأدنى، وتوثيقاً حياً لحركة هذه السفارة ومجريات أحداثها السياسية والدبلوماسية والحضارية والفكرية . وبناءً على هذه المعطيات دوّن ابن الحاج رحلته السفارية هذه بجميع أحداثها وآثارها الأدبية في كتابه الذي أسماه (فيض العباب وإجالة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب[٣٦]) .

إنّ أهم ما أثار انتباهنا فيما يتعلق بأخبار هذه السفارة هو أننا وفي أثناء استقرائنا للمصادر التاريخية المعاصرة لها وجدنا أن هذه المصادر قد ركزت على الجوانب التاريخية ولم تعرْ أهمية إلى جوانبها الأدبية التي أسهمت إسهاماً فاعلاً في توثيقها وتدوينها والتعريف بها ، ككتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) إذ لم يذكر لنا مؤلفه لسان الدين بن الخطيب سوى بيتين له - أي لابن الخطيب - وصف فيهما كيفية خلاص ابن الحاج من قبضة النصارى بعد أن كان قد امتُحن في بعض سفاراته بالأسر[٣٧] . أما المصادر اللاحقة للسفارة فإنها حذت حذو المصادر المعاصرة ، إذ لم تكفنا مؤونة البحث والتقصي عن الآثار الأدبية في بقية المظان ، اللهم إلا في مواضع متفرقة لم يصل عدد أبياتها في أعلى موضع له إلى حدود أبيات القصيدة أو المقطوعة الواحدة ، كالمقرّي في نفحه الذي لم يذكر لنا في أثناء ترجمته لابن الحاج سوى قصيدة واحدة[٣٨] . غير أننا من خلال رجوعنا إلى ديوان ابن الحاج وتدقيقنا النظر فيه رصدنا ثلاث

قصائد طويلة وثلاث مقطوعات كان محقق الديوان قد خرّجها من (فيض العباب) بشكل اعتمد فيه على المخطوط أكثر من اعتماده على المطبوع ، فضلاً عن قطعة نثرية وجدناها في غير هذا الديوان ، كانت كلها قد أعطت هذه السفارة قيمتها الوثائقية . وسنكتفي بإيراد شواهد معينة من بعض تلك النصوص لفرط طولها .

أما ما يتعلق بأسلوب السفير الأديب فإننا وجدنا فيه تبايناً ملحوظاً ، فتارة غلب عليه الأسلوب المسجوع كما سنرى في القطعة النثرية ، وتارة ثانية كان يجنح بأسلوبه نحو الشعر التقليدي الذي درج عليه كبار الشعراء في المشرق ، وتارة ثالثة كان يمتطي فنون البلاغة ومتونها ، أما الأغراض التي دارت حولها نصوص ابن الحاج الأدبية فلا تعدو أن تكون مدحاً لأبي عنان والدولة المرينية ، أو وصفاً أو سردا حكائياً لموقف ما ، أو مساجلات جرت بين يدي السلطان ، أو مَنّة ، كتهنئته بشفاء السلطان أبي عنان من خلال قوله :

مطالب إلاّ أنهنّ مواهب ... قضى الله أنْ تُقضى فنعمَ المطالب
شفاء أمير المؤمنين وإنه ... لأكرمُ مَنْ تُحدى إليه الرّكائب
وكم قلتُ غاب البدرُ والشمسُ ضلّة ... ورانتْ على قلبي الهموم النّواصب
ولم يغبا لكن شكى الضرَّ فارسٌ ... وأوحش منه مجلس المُلك غائب
لك الله يا خيرَ الملوكِ وخير مَن ... تحنُّ له حتى العتاق الشوازب
وقُلّ لمن وافى بشيراً نفوسنا ... فما هي إلا بعض ما أنت واهب
أقولُ لجُرد الخيلِ قبّاً بطونها ... معقدة منها لحرب سباسب
طوالع من تحت العجاج كأنها ... نعام بكثبان الصّريمِ خواضب

— — —

أعرني أمير المؤمنين بلاغة ... فإني عن عجزٍ لمدحك هائب
وأنطقُ لساني بالبيان مُعلماً ... فإني في التعليم للجود راغب
وكيف ترى لي بعدُ في الجود رغبةً ... وجودُك لي فوق الذي أنا طالب
وقد شبّت الآمال إذ شبْتُ ثم إذ ... تقدمتها لم يدرِ ما شبّ شائب[٣٩]

أو سرده لما كان يشهده مجلس السلطان من ارتسامات ومساجلات ، من ذلك قوله فيما يرويه عن نفسه : ((.. وفي يوم الجمعة المذكور كان نزولنا بعيون القصب ، ولا عين إلا وقد قرّت ، ولا صدر إلا وقد أناخت به المسرات واستقرت . وبينما مولانا – أيده الله – في مجلس ملكه ، ونحن بين أيديه وأبصارنا محدقة إليه ، وهو متفكر في أحوال مَن بالشرق من البغاة الذين شهروا سيوف الفتن ، وأجنفوا عن النهج الواضح والسنن ، والحسّاد الذين خبثت بطانتهم وظهارتهم ، وعظمت للحرب العوان إثارتهم ، إذا بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني قد وصل إلى الباب الكريم ، ووفدت منه خزانة آداب هي أبدع من الدرّ النظيم ، فتناول – أيده الله – منه سفراً ، وفتحه على وجه التفاؤل الذي أبقى في بطون الأوراق ذكراً .. فشكر الله على ذلك مولانا الذي رحم الله به البلدان ، وزاد إمضاء لعزائمه التي ظاهرت الإسلام والإيمان ... وعلى أثر ذلك تسابق الأصحاب في ميدان النظم والتوطئة ... فأتوا في ذلك بقصائد تفتحت عن كمائم الأفكار زَهراً ، وطلعت بسماء القراطيس زُهراً ، وثنت قدود الأقلام وقد كادت تميل سكراً..[٤٠])) . وبعد ذلك أردف بقوله مادحاً السلطان :

سرى وعيونُ الشّهبِ تشكو التّسهُّدا ... خيال على الأكوارِ قد زار مُكْمِدَا

ومـــا راعـــــه إلا الـــصّـبـاح كـأنه حسامٌ بغمدِ الليلِ قـدْ كان مُـغـمدَا
ووممـــضـــة بـــرق ألبس الخدّ فضة من الدمع كما ألبس الأفق عَسجدَا

ـــــ ـــــ ـــــ

إمام الهدى المرجو ما فـخـرِ العلا بأسعد منه في الزمـــان وأصعـــدَا
شديدٌ على الأعداء ما ابـــنُ مُكرّم بأشجع منه في الـحروب وأنـجـــدَا
وما كلُّ من حثّ الخُـــيـولَ يسـرها وما كلُّ من أجـرى بها بلغ المَـــدَا
تقيٌّ له العقبى فلا السـعي خائب أبـى اللهُ إلا أن تُنـال وتُـحـمـدَا
وفعل الفتى كلٌّ على المجد والعلا إذا كان عن تقوى المهيمن مبعدَا
كريمٌ بشمل الحمد ظلّ مـجمّعاً وللشمل شمل المال ظلّ مبدّدَا[٤١]

وقوله في فتح قسنطينة :

سل العيسَ والبرق الذي لاحَ من نجد متى عـهـدها بالـجزع والـعـلـم الـفردِ
وهـل عـنـدهـا عـلم بأعـــلام حـــاجـر وما هجن لي من لاعج الشوق والوجدِ

ـــــ ـــــ ـــــ

وما اتبعتْ يوماً قسنطينة الهوى هـواهـا ولا كـان التـمـنّع عن عَمْد
ولـكـن لـتـحـظى باقـتـراب خليفة يـديـن بـتـقوى الله في الحلّ والعقد
وإنّ بقاع الأرض كالناس بعضهم غـدا غـيـر مـجـدود وآخـر ذا جـــدِ
فللّه عـيـنـا مـن رأى يـومَ فـتـحها عجائب قـد جلّت عن الحصرِ والعدِ
أتـتها جُـيـوش زاحـفـات كأنـهـا مع النصر قد كانت هناك على وعـدِ
فأذعـــن أهـلـوها وجـاء أميرهم لأكـــرم مـولىً شـأنه الـرفق بالعبـدِ
فأعـطـيـته حتى الـحـيـاة مواهباً لـربك منها ما تعـيد ومـا تُبدي[٤٢]

وغير ذلك من الآثار الأدبية التي تناولت سفارة ابن الحاج ووثقتها[٤٣] . وبذلك تكون هذه الآثار قد أزاحت شيئاً من الغموض الذي اكتنف رحلة السفير الأديب إلى البلاط المغربي وصاحبها .

رابعا : سفارات ابن الخطيب :

على أن أشهر السفارات التي شهدتها المائة الثامنة ووثقتها صفحات التاريخ الأندلسي بما حققته من مكاسب ونتائج إيجابية ألقت بظلالها على الواقع السياسي في الأندلس ، تلك التي قام بها السفير الأديب لسان الدين بن الخطيب إلى الدولة المرينية في البلاطات المغربية ؛ كجزء من محاولة وضع الحلول المناسبة لما كان عليه الواقع الأندلسي في المائة الثامنة من تراكمات ومواضعات وما شهده من فوضى واضطرابات . فقد كان هذا السفير الأديب خير ممثل لرحلات سفارية رسمية يتوقف عليها مصير شعب بأكمله كهذه ؛ وذلك لما كان يتمتع به من نفوذ واسع وتمرس بأساليب السياسة والأدب وسعة في الثقافة وغزارة في الإنتاج . وهذا ما أيده غير واحد من الباحثين المعترفين بموسوعية هذا الأديب السفير ، ومنهم الدكتور أحمد أمين الذي نراه محقاً تماماً حين يقول : ((فالذي يظهر لنا أن الثقافة الأندلسية من أولها في الأندلس إلى آخرها قد صفيت وتقطرت في لسان الدين بن الخطيب في تعدد مناحيه وسعة علمه وكثرة إنتاجه . ولعلّ هذا المعنى هو الذي شعر به المقرّي فألف فيه كتابه (نفح الطيب) وفيه ثقافة الأندلس وسماه باسمه كأنما هو هي[٤٤])) .

ومن هذا المنطلق فإننا نرى أن أدب ابن الخطيب الذي رافق سفاراته ووثقها كان غاية في الأهمية على الصعيدين الأندلسي والأندلسي المغربي . فعلى الصعيد الأندلسي كان هذا الأدب قد ذللّ كثيراً من الصعاب التي واجهها في سفاراته ، وأسهم إسهاماً فاعلاً بتحويل هذه الثورة الأدبية إلى ثورة سياسية حققت ما كان ينتظره الأندلسيون حكومة وشعباً. وعلى الصعيد الأندلسي المغربي فقد أحدث أدب ابن الخطيب نقلة نوعية في الحياة الفكرية والأدبية في المغرب ، فكان له – بحسب ما وصفه محمد بن تاويت – ((أثره القوي وصداه البعيد في تأريث شعلة الأدب وتنوير معالمها في فاس ومكناس وسلا ومراكش وغيرها من المدن وحتى القرى[٤٥])) .

وأما ما يتعلق بسفارات ابن الخطيب التي قام بها في ظل الدولة النصرية في عهد بني الأحمر فكانت غير واحدة[٤٦] ولم تصل إلينا أخبار أكثرها . وستقتصر دراستنا هذه على ما اقترن ذكرها بالأدب . وعلى وفق هذا الاقتران السفاري الأدبي فإننا سنركز حديثنا على رحلتين مهمتين : الأولى رحلة سفارية رسمية كان لها دور فاعل على المستويين التاريخي والأدبي . والأخرى رحلة وإن كانت ذات طابع شخصي أكثر مما هو رسمي فإنها حذت حذو الرحلة الأولى فتركت شعراً أثر في سامعيه فأبكاهم .

فأما رحلته السفارية الأولى فقد أرسل فيها عن الغني بالله (محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج أمير المسلمين في الدولة النصرية) بسفارة إلى السلطان المريني أبي عنان سنة (٧٥٥ هـ) ؛ وذلك لتوثيق العلاقة الدبلوماسية بين مملكتي بني الأحمر وبني مرين ، وإشعار أبي عنان بما قد حلّ بغرناطة من مقتل السلطان أبي الحجاج (يوسف بن إسماعيل بن فرج أمير المسلمين بالأندلس ووالد الغني بالله ت ٧٥٥ هـ) وتولية ابنه الغني بالله السلطة بديلاً عنه ، فضلاً عن طلب عونه ونجدته بأن يواصل أبو عنان ما اعتاده سلفه أبو الحسن (ت ٧٥٢ هـ) من نصرة الأندلس على أعدائها .

ولما كانت الطبيعة المغربية تقضي بإكرام السفراء الوافدين إليها والترحيب بهم فقد كان ابن الخطيب واحداً من أولئك السفراء الذين رُحّب بهم . فلما أطلّ على مداخل مدينة فاس خاطبه الوزير المغربي ابن مرزوق (ت ٧٨١ هـ) برسالة أدبية يقول في مستهلها :

يا قادماً وافى بكلّ نجاح ... أبشر بما تلقاه من أفراح
هذي ذرى ملك الملوك فلُذْ بها ... تنل المُنى وتفز بكلّ سماح
مغنى الإمام أبي عنان يمّمن ... تظفر ببحر في العلى طفاح
من قاس جود أبي عنان ذي النَّدى ... بسواه قاس البحر بالضَّحْضَاح
ملك يفيض على العفاة نواله ... قبل السؤال وقبل بسطة راح[٤٧]

فراجعه ابن الخطيب برويها وقافيتها بقوله :

راحت تذكّرني كؤوس الراح ... والقرب يخفض للجناح جناح
وسَرَتْ تدلّ على القبول كمثل ما ... دلّ النسيم على انبلاج صباح
حسناء قد عُنيت بحسن صفائها ... عن دملج وقلادة ووشاح

ومنها في مدح السلطان المريني أبي عنان :

بخليفة الله المؤيد فارس ... قمر المعالي الأزهر الوضاح
ما شئت من هم ومن شيم غدت ... كالرّوض أو كالزّهر في الأدواح
فَضِل الملوك فليس يُدرك شأوه ... أنى يُقاس الغمر بالضَّحْضَاح[٤٨]

وعلى ما يبدو فإن إلقاء التحايا كهذه التي جرت بين الوزيرين المغربي والأندلسي كانت قد دلّت دلالة واضحة على مقبولية ابن الخطيب عند السلطان المريني . وفي الوقت نفسه فإنها كانت وسيلة لإدراك غاياته السياسية أو قُلْ تمهيداً مثالياً لاستدرار عطف السلطان وتلبية رغبات الأندلسيين وآمالهم .

ولئن كان في النص المتقدم لابن الخطيب ما يوحي بقدرته على التأثير في الآخر ، فإن الشاهد الشعري الآتي الذي ألقاه بين يدي السلطان المريني غداة وصوله إلى مدينة فاس أثّر في نفس أبي عنان أيّما تأثير، فأسهم – من خلاله – في تحقيق ما كان ينتظره الأندلسيون من رغبات ومطالب. فبعد أن استقبله أبو عنان استقبالاً رائعاً في قصره أنشد قصيدته التي يقول فيها :

خليفة الله ساعد القدر ... عُلاك ما لاح في الدجى قمرُ
ودافعتْ عنك كفُّ قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشرُ
ليس لنا ملجأ نؤمله ... سواك أنت الشمال والوزرُ
وجهك في النائبات بدر دجى ... لنا ، وفي المحل كفك المطرُ
والناس طراً بأرض أندلس ... لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن ... في غير علياك ماله وطرُ
ومَن به مُذْ وصلتَ حبلهم ... ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهمّتهم نفوسهم ... فوجّهوني إليك وانتظروا[٤٩]

فما كان من أبي عنان إلا أن يهتز لهذا الخطاب ويتأثر به ، إذ حرّك سواكنه واستنطق صوامته و ((وظف فيه صاحبه أساليب الإقناع والمحاجّة ، وهو خطاب صادر عن شاعر مجيد محمّل برسالة ثنائية القيمة : قيمة حربية سياسية وقيمة حضارية أدبية[٥٠])) . قال ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) بوصفه أحد شهود هذا الحفل : ((وأذن له في الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس ما ترجع إليهم إلا بجميع عطائهم . ثم أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه . وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف – وكان معه في ذلك الوفد - : لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلّم على السلطان إلا هذا[٥١])) . وبعد ذلك انصرف ابن الخطيب من هذا المجلس ، فكان انصرافه – بحسب ما وصفه في إحاطته – بأنه من أفضل ما عاد به سفير[٥٢] . وقد أنشد قصيدة عقب هذا الانصراف قال في مطلعها :

أبدى لداعي الفوز وجه منيب ... وأفاقَ من عذلٍ ومن تأنيبِ

ومنها في مدح أبي عنان :

بخليفة الله في كفه ... غيثٌ يروّض ساح كل جديبِ
المنتقى من طينة المجد الذي ... ما كان يوماً صِرفه بمشوبِ
يرمي الصعاب بسعده فيقودها ... ذُلُلاً على حسب الهوى المرغوبِ
ويرى الحقائقَ من وراء حجابها ... لا فرق بين شهادةٍ ومغيبِ
من آل عبد الحق حيث توشحت ... شعب العُلا وربَتْ بأيّي كثيبِ
أسُدُ الشرى، سُرُج الورى فمقامهم ... لله بين محارب وحُروبِ[٥٣]

وأما رحلته الثانية فقد اقترنت أحداثها بسقوط سلطانه الغني بالله ؛ بسبب الثورة التي قام بها عليه أخوه إسماعيل (إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج ت ٧٦١هـ) سنة (٧٦٠ هـ) . وعلى أثرها فقد ابن الخطيب جاهه وقُبض عليه وذهب عزه . غير أن هذه المحنةَ لم تُطِل به كثيراً حتى أرسل السلطان أبو سالم المريني (ملك المغرب في هذه المدة ت ٧٦٢ هـ) سفيره الشريف أبا القاسم التلمساني إلى سلطان

غرناطة الجديد إسماعيل النصري يطلب منه فك قيده ، فما كان منه إلا أن امتثل لذلك الطلب ؛ وذلك حفاظاً على دوام الود مع مملكة بني مرين ، ففُك قيده وارتحل إلى مدينة فاس مُرحَّباً به[٥٤] ، فكانت هذه الرحلة مناسبة ثانية لابن الخطيب لإظهار آثاره الأدبية في البلاطات المغربية ، من ذلك قصيدته الرائية التي أنشدها بين يدي أبي سالم يستنصره ، يقول فيها :

قصدناك يا خيرَ الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدك الدهرُ
كففنا بك الأيام عن غلوائها وقد رابنا منها التعسفُ والكبرُ

ومنها :

وأنت الذي تُدعَى إذا دهم الردى وأنت الذي تُرجَى إذا أخلف القطرُ
وأنت إذا جار الزمان محكّمٌ لك النقضُ والإبرامُ والنهيُ والأمرُ
وهذا ابنُ نصر قد أتى وجناحه مهيض ومن عليك يُلتمس الجبرُ
غريب يرجى منك ما أنت أهله فإن كُنتَ تبغي الفخر قد جاءك الفخرُ
فَفُزْ يا أمير المؤمنين بِبيعةٍ موثقةٍ قد حلّ عروتها الغدرُ
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا بيا لمريض جاءه العز والنصرُ
وخذْ يا إمامَ الحقِ بالحق ثأره ففي ضمن ما تأتي به العز والأجرُ[٥٥]

فقد استولى ابن الخطيب – من خلال قصيدته هذه – على سامعيه فأبكاهم تأثراً . وقد بيّن ابن خلدون الأثر الذي أحدثته هذه القصيدة في نفس السلطان المريني وحاضريه بقوله : ((ثم انفضّ المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى منزله وقد فرشت له القصور ، وقربت له الجياد بالمراكب المذهبة ، وبُعث إليه بالكساء الفاخرة ، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجين وبطانته من الصنائع ، وانخفض عليه رسم سلطانه في الركب والرجل ، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الأداة أدباً مع السلطان[٥٦])) . وهو أمر أتاح لابن الخطيب أن يستقر في البلاط المريني لسنوات عدة ؛ لتتعزز بما شاهده في سفاراته ورآه مواهبه الأدبية في البحث والتأليف . فـ ((ما من شك في أن قيامه بهذه الرحلات السفارية قد زاد في جديته ، وفي تمكين خبراته وتمتين تصوراته ... كتب خلالها وألف العديد من الكتب والرسائل الديوانية .. من الموجود منها مقامته (خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف) ومن المفقود كتاب (التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى) و (الإكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر) و(عائد الصلة) .. فضلاً عن رسائله الكثيرة (كناسة الدكان) و (ريحانة الكتاب) ..[٥٧]))

وعلى وفق هذه الأسس تتأكد لدينا الحقيقة التي كنا قد أشرنا إلى ملامحها هنا وهناك وهي أن ابن الخطيب كان واحداً من أشهر السفراء الذين شهدهم القرن الثامن الهجري في الأندلس إنْ لم نقل أشهرهم . أما أدبه فكان أقدر على التأثير وأبلغ في التعبير عن الواقع الأندلسي المعيش . ومن ثم فقد باتت رحلات ابن الخطيب محوراً لعديد من الآراء النقدية ، من ذلك ما نصّ عليه الدكتور أحمد مختار العبادي بقوله : ((فمثل هذه الروح النشيطة والحيوية المتدفقة ، ثم هذه الدقة في الملاحظة التي امتازت بها جميع رحلاته ومشاهداته ، تدل جميعاً على أن ابن الخطيب رحّالة من الطراز الأول[٥٨])) . وكذلك ما تحدث به الدكتور حسين مؤنس واصفاً هذه الرحلات بما نصُّه : ((.. ووصف رحلته دون شك يدخل في حصاد الجيد من أدب الرحلات في الأندلس[٥٩])) .

خامساً : سفارتا ابن زمرك :

ولئن كان أدب ابن الخطيب في سفارتيه قد اتسم بطابع مثالي أحدث من خلاله تأثيراً مدوياً في البلاط المغربي ، وأسهم بشكل أو بآخر في تغيير بعض مما كان عليه الواقع السياسي في الأندلس حتى ولو كان مؤقتاً ، فإن شعر ابن زمرك في سفارتيه اللتين وفد من خلالهما الى بلاد المغرب قد حذت حذواً مغايراً تماماً لما كان عليه أدب ابن الخطيب . إذ كان قد طُبعَ بطابع وصفي خلا من أي مظهر من مظاهر التأثر والتأثير في الآخر ، وآخر مدحي خصَّ به سلطانه أبا سالم المريني[٦٠] وغيره من ملوك المغرب .

وإذا كانت الغاية من رحلتي ابن زمرك - بحسب رأي ابن الخطيب في الإحاطة - هي طلب العلم والازدياد منه ، ودليله هو توليه الكتابة لأحد أبناء السلطان المريني أبي سالم قبل أن يترقى إلى الكتابة عن السلطان نفسه[٦١] ، فإن هذه الغاية هي غاية أولى ، وهناك غاية ثانية تراءت لنا في بعض قصائده لوّح من خلالها إلى معاني الاستصراخ والاستنجاد واستنهاض الهمم المغربية ومدّ يد العون لحكام الأندلس لتغيير واقعهم وإدراكه ولا سيما أن المدن الأندلسية أخذت طريقها نحو الانهيار والسقوط ، إلا أنّ شيئاً من أنواع الاستجابة لم يحدث ولم يستطع ابن زمرك إدراك مرماه وغايته . وأكبر ظننا أن الأجواء في المغرب المريني في أواخر المائة الثامنة وما بعدها لم تكن مثالية بحيث يتم فيها تحقيق جميع مطالب الأندلسيين . إذ طغت الاحتقانات السياسية على واقعهم وأخذت تسحبه نحو التفكك والانحلال والتصدع في أهم أركانه[٦٢] . وليس بعيداً أن تكون هذه المظاهر التي سادت في المغرب انعكاساً حقيقياً لمعاناة الأندلس وصدىً لها .

أما ما تناقلته المصادر بشأن شعر ابن زمرك في سفارتيه فإنه لا يشكل سوى إشارات يسيرة في صفحات محدودة وفي مناسبات معينة . فكان بعضه مدحاً لملوك المغرب واستنهاضاً لهممهم ، وبعضه الآخر كان وصفاً لسفارات غيره . فمن ذلك قوله يخاطب السلطان أبا فارس عبد العزيز (سلطان المغرب تولى الحكم ما بين ٧٦٧ - ٧٧٤ هـ) وقد توجه إليه من قبل الغني بالله مهنئاً إياه بالملك ويستنفره إلى المظاهرة في الجهاد:

ثُناجيك خلف البحر آمالُ معشرٍ ... وكل محيّاك المبارك يرقبُ
وشخصُك في كل القلوب مصوّرٌ ... وأنت وراء الغيب غيبٌ محجّبُ
ستنصرها نصراً عزيزاً مؤزراً ... يبلغ أهل الله ما هي ترغبُ
فقلّدْ سيوفاً من مرينٍ وسُلّها ... على عصبة التثليث والله يضربُ[٦٣]

وقوله من قصيدة أخرى يجيب بها ملك المغرب أبا العباس أحمد (تولى السلطة سنة ٧٧٦ هـ) نيابة عن الغني بالله ، وقد قدّم لها شعاراً يقول فيه (مستنفراً لدواعي الخلوص مستوفزاً) :

أرواحنا أعززْ بها مبذولة ... لمبشّرٍ بلقائك المترقّبِ
ولذاك يومٌ حقُّه أنْ لا يرى ... فيه من الأحباب مَن لم يطربِ

فاصرفْ إلى قصد الجهاد أعنّة ... سبقت بشأو للسُعود مُغرّبِ
وأجزْ فوارس من مرين ترتمي ... نحو الكريهة مقنباً عن مقنبِ
أسْدٌ وما أغيالها إلا القنا ... فلهم حمىً من بأسها لم يُقربِ
رهبانُ ليلٍ ما تنام جُفونُها ... وإذا همُّ عُداتُها لن تهربِ
غُرُّ الوجوه عريقة أحسابها ... غير المحامد والعلى لم تخطبِ
إنْ أوردوا الخيلَ العتاق ولم تجد ... علق النجيع بوردها لم تشربِ

علمتهم أدب الحروب فكلهم يسطو بباس مهذب ومدرب[٦٤]

إنّ هذه القصيدة تعد من مطولات الشعر الذي رافق رحلات الأندلس السفارية ووثقها ، إذ بلغت أبياتها تسعة وتسعين بيتاً ، وهي وإن نحت في كثير من أجزائها منحىً مدحياً إلا أنها قصيدة سياسية حربية بالدرجة الأولى ((اهتم فيها ابن زمرك بموضوع الاستصراخ اهتماماً خاصاً فقلبه على جميع وجوهه واستنفد كل معانيه وسخّر له كل الحجج المباشرة وغير المباشرة حتى أتت هذه القصيدة ملمّة بجميع جوانب الموضوع موحية بما لم يصرح به منها ، مصورة لخفايا النفس الأندلسية في عهود التراجع والتقهقر[٦٥])) .

أما مشاركاته الشعرية في وصف سفارات غيره فنجد ما يفيد بأن القائد خالداً (كبير خدّام الغني بالله وأحد مبعوثيه) يعود من تلمسان محملاً بالهدايا ومعززاً أواصر المودة ووشائجها ، فيشير إلى هذا السفير وما عاد به من سفارته تلك ، فضلاً عن إشارته إلى موسى بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني (أقام بالمغرب الأقصى دولة بمساعدة الغني بالله بين ٧٨٦ – ٧٨٨ هـ) وذلك بقوله :

فيا أيُها المولى الذي بكماله خلائف هذا العصر في الفخر تأتسي
فأمّنتَ موسى من عوادي سميّه ولولاك لم يبرح بخيفة موجسِ
بعثتَ بميمون النقيبة في اسمه خلودٌ لعزّ ثابت متأسسِ
فجاءك بالمال العريض هدية بها الدين أثواب المسرّة يكتسي
وشفّعها بالصافنات كأنها وقد راقَ مرآها جآذر مكنسِ[٦٦]

وفي النص الآتي نجد ما يشير إلى أن الغني بالله يخلع ملابس ثمينة على رسول من رُسلائهِ ، بما يتناسب ومكانة السفير ودوره الحيوي في تأمين ما يمكن تأمينه من واقع آمن له ولمجتمعه ، فيقول في ذلك :

لك الخير إن أصبحت بحر سماحة يعَمُّ نداه فالمواهب ساحلُ
خلعتَ على هذا الرسول ملابساً بها تتسنى في عُلاك المآملُ
وبَلغته آماله كيف شاءها فبُلغتَ يا مولاي ما أنت آمِلُ[٦٧]

سادساً : سفارة الشاعر المجهول :

أما آخر السفارات الأندلسية التي تتبعتها دراستنا ، ولعلها كانت من آخر ما بذله أهل الأندلس من جهود في الاستصراخ ، سفارة لم تسلط عليها الأنوار كثيراً سوى ما يتعلق بتحقيقها وشيء من أخبارها وما تبقى من أحداثها[٦٨] . وهي سفارة سياسية دبلوماسية أرسلت من غرناطة إلى القاهرة سنة (٨٤٤ هـ) ، إذ أرسل فيها أبو عبدالله الأيسر (محمد بن يوسف الملقب بالغالب بالله ، سلطان غرناطة تولى السلطة خمس مرات ما بين ٨٢٢ – ٨٥٨ هـ) سفيراً شاعراً من سفرائه أسقط التاريخ اسمه إلى الملك الظاهر جقمق (سلطان مصر تولى السلطة ما بين ٨٤٢ – ٨٥٧ هـ) ؛ وذلك بهدف إبلاغه بتهاوي المدن الأندلسية حتى المغربية واحدة تلو الأخرى وهافت قواهم ، وحثه على تقديم جميع السبل والوسائل التي تضمن للأندلسيين الدفاع عن أنفسهم واسترجاع حقوقهم .

وفي ضوء الضباب الذي كان يكتنف القرن التاسع الهجري من ظروف مأساوية ، فضلاً عن البعد بين الأندلس والقاهرة ، فإن هذه السفارة لم تتمكن من تحقيق أهدافها المنشودة في الحث والاستصراخ ، ولم تسفر – بحسب رأي الأستاذ محمد عبدالله عنان – عن أية نتائج علمية[٦٩] . ولكن على الرغم من ذلك فإنها تعد مفيدة من الناحية الفنية والأدبية في تعقب سلسلة السفارات والرحلات في التراث الأندلسي وانْ

غاب عنا شيء من نصوصها وأحداثها[٧٠] ، كالذي ضاع في مجريات هذه السفارة السياسية . إذ لم يصل إلينا منها سوى قطعتين غير متصلتين . أفادتنا القطعة الأولى بوصف أجزاء معينة من الطريق البحري كـ(رودس والإسكندرية والقاهرة وبولاق) . ولعل أهم ما في هذا الجزء هو استقبال السلطان المملوكي الظاهر جقمق لسفير غرناطة ومن معه وتبادل الهدايا بين الطرفين ، وتوثيق ذلك بموشحة دلّت على حسن صنيع السفير وكياسته الدبلوماسية . وفي القطعة الثانية وصف السفير أداءه لمناسك الحج والحجاز بشكل عام[٧١] .

وكان في جملة ما ونقه هذا السفير في رسالته التي بعث بها سلطان غرناطة أن السلطان جقمق قال له بعد أن قرأ عليه كاتب سره الرسالة : ((سأبعث إلى ابن عثمان (سلطان القسطنطينية المفتوحة) يعينكم إن شاء الله ، فقال له .. يا مولانا السلطان نصركم الله أنت هو كبير الملوك والسلاطين وخديم الحرمين الشريفين ، ولم نجئ إلا إلى حضرتكم وحاشاك أن تردنا خائبين . فقال : إنّ بلادكم بعيدة ولا يمكننا أن نجهز لكم عسكراً . فقال : يا مولانا السلطان إذا لم يمكنكم تجهيز العسكر إلينا فلتعنا بالمال والعدة ، وما كان لله فهو يحفظه ، فقال : نعم أعينكم إن شاء الله بالمال والعدة . فسلمنا وانصرفنا وقد أمر بإنزالنا ورسم لنا بدينارين من الذهب في يوم[٧٢])) . ثم أثنى السفير على السلطان لحسن استقباله وإكرامه بقوله من موشحة نظمها في معنى الشكر :

يكلُّ عن شكرك اللسانْ يا روضة العلم والصلاحْ
وغر أوصافك الحسانْ تنبئ عن مجدك الصراحْ[٧٣]

— — —

يا أيُّها الظاهر المؤيدْ السيد الفاضل الخطيرْ
بعزّ سلطانك المخلدْ تمسَّك الخائفَ الفقيرْ
فَلَمْ من حالنا المبدّدْ ما فرق الحادث العسيرْ
وكُنْ لنا خيرَ من أعانْ على ذوي الكفر والجناحْ
فأنت بالحق من أبانْ معالم الدين والصلاحْ[٧٤]

وقوله بعد أن قدّم له شيئاً مما اصطحبه معه من متاع الأندلس :

انظرْ إلى حسن إنشائي وإتقاني وما كسيت به من لوني القاني
من بعد ما كنتُ بين الترب ممتهناً أرضى بحكم الذي في الهون ألقاني
فأحكمتْ صنعتي أيدي الورى فأنا أثني على كل مَن بالحسن وشاني
حتى غدوتُ عظيم القدر ذا خطر أهدى لكم يا عظيم القدر والشّان[٧٥]

وهكذا تكون الصورة الحقيقية لسفراء الأندلس الذين وفدوا على بلاطات مسلمة وغيرها قد تراءت لنا بشكل جلي وواضح من خلال ما تقدم ذكره من نصوص أدبية ومواقف تاريخية .

هوامش البحث

(١) أدب الرحلات عند العرب ، نشأته وتطوره ، ابن بطوطة أنموذجاً : مصطفى سالم عبدالله حبلوص ، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية ، طرابلس ، ليبيا ، ط١ ، ٢٠٠٩ : ١٨ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ١٧ .

(٣) الماركسية والشعر : طومسون ، ترجمة : القشيني ، بغداد ، ١٩٥٩ : ١٩ .

(٤) قواعد النقد الأدبي : كرومبي ، ترجمة : محمد عوض محمد ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٥٤ : ٣٧ .

(٥) ينظر على سبيل المثال : أدب الرحلات عند العرب ، نشأته وتطوره : ٣٥ – ٣٦ ، وأدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم : د . خضر موسى محمد حمود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١١ : ١٩ – ٢٢ .

(٦) ينظر على سبيل المثال : يحيى بن الحكم الغزال ، سفير الأندلس وشاعرها الواقعي : د . حكمة علي الأوسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، المجلد ٢١، ١٩٧١ : ١٩٦ – ٢١٣ ، وشاعر الأندلس يحيى بن حكم البكري الغزال : عبدالقادر زمامة ، مجلة المورد ، بغداد ، المجلد ٨ ، العدد ٢ / ١٩٧٩ : ٦٦ – ٧٣ .

(٧) ينظر على سبيل المثال : حياة الشعر في نهاية الأندلس : د . حسناء بوزويتة الطرابلسي ، دار محمد علي الحامي ، تونس ، ط١ ، ٢٠٠١ : ٥٩٧ – ٦٠٢ .

(٨) ينظر على سبيل المثال : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : المقري التلمساني (الشيخ أحمد بن محمد التلمساني ت ١٠٤١ هـ) ، تحقيق : د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط٥ ، ٢٠٠٨ : ٧ /١٠٨ – ١٣٦ ، ١٤٥ – ١٧٩ .

(٩) في الأدب الأندلسي : د . محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٠ : ٢٩٤ .

(١٠) ينظر : المطرب من أشعار أهل المغرب : ابن دحية (عمر بن حسن ت ٦٣٣ هـ) ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، و د.حامد عبدالمجيد ، ود. أحمد احمد بدوي ، مراجعة : د . طه حسين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ : ١٣٩ .

(١١) ينظر : المُغرب في حلى المَغرب : علي بن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥ هـ) ، تحقيق : د. شوقي ضيف، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ : ٢ / ٥٧ ، والإسلام في المغرب والأندلس : ليفي بروفنسال ، ترجمة : د. محمود عبدالعزيز سالم ، ومحمد صلاح الدين حلمي ، مراجعة : د. لطفي عبد البديع ، مكتبة ومطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦ : ١١٣ .

(١٢) ينظر : نفح الطيب : ١ / ٣٤٦ – ٣٤٨ .

(١٣) ينظر : المطرب من أشعار أهل المغرب : ١٣٩ وما بعدها ، ويحيى بن الحكم الغزال ، سفير الأندلس وشاعرها الواقعي : ١٩٦ .

(١٤) ينظر : دولة الإسلام في الأندلس ، الخلافة الأموية والدولة العباسية : محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ومكتبة الأسرة ، القاهرة ، (د.ت) : ٢ / ٢٨٢ – ٢٨٥ .

(١٥) ينظر : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة : د. إحسان عباس ، دار الشروق ، الأردن ، ط٢ ، ١٩٩٧ : ١٤٧

(١٦) شاعر الأندلس يحيى بن حكم البكري الغزال : ٧٢ .

(١٧) ديوان يحيى بن حكم الغزال (يحيى بن حكم البكري الجياني الأندلسي الملقب بالغزال ت ٢٥٠ هـ) تحقيق وشرح وتقديم : د. محمد رضوان الداية ، دار قتيبة ، أبو ظبي ، ط١ ، ١٩٨٢ : ١٠٠

(١٨) المطرب من أشعار أهل المغرب : ١٤١ .

(١٩) المصدر نفسه : ١٤٢ .

(٢٠) المصدر نفسه : ١٤٢ .

(٢١) ينظر : المصدر نفسه : ١٤٣ .

(٢٢) المصدر نفسه : ١٤٣ .

(٢٣) المصدر نفسه : ١٤٤ .

(٢٤) ديوان يحيى بن حكم الغزال : ٤٥ – ٤٦ .

(٢٥) المطرب من أشعار أهل المغرب : ١٤٦ .

(٢٦) ديوان يحيى بن حكم الغزال : ٥٥ .

(٢٧) المصدر نفسه : ٩٦ – ٩٧ .

(٢٨) ينظر : المُغرب في حلى المَغرب : ٢ / ٥٨ .

(٢٩) أدب الرحلات عند العرب ، نشأته وتطوره : ١٧٧ .

(٣٠) ديوان ابن الأبار (محمد بن الأبار القضاعي ت ٦٥٨ هـ) قراءة وتعليق : د. عبدالسلام الهراس ، الدار التونسية ، ١٩٨٥ : ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(٣١) المصدر نفسه : ٣٩٧ .

(٣٢) نفح الطيب : ٤/ ٤٦٠ .

(٣٣) دولة الإسلام في الأندلس ، عصر الموحدين وانهيار الأندلس : ٦ / ٤٤٨ .

(٣٤) ابن الأبار ، حياته وكتبه : د. عبدالعزيز عبد المجيد ، طبعة معهد مولاي الحسن ، المغرب ، ١٩٥١ : ٣٥٩ .

(٣٥) في الأدب الأندلسي : ٢٨٠ .

(٣٦) نُشر هذا الكتاب في الرباط بتحقيق د. محمد بنشقرون سنة ١٩٨٤ .

(٣٧) ينظر : الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب (محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني ت ٧٧٦ هـ) ، شرح وضبط وتقديم : د. يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٣ : ١٩١/١ . إذ كان ابن الحاج قد توجه سفيراً إلى صاحب تلمسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسف بن زيّان ، فأسِر هو ومن بأسطوله من المسلمين ، وسرعان ما تخلص من هذا الأسر وذلك في سنة ٧٦٨ هـ ، فوصف ابن الخطيب أسره وخلاصه منه ببيتين شعريين فقط .

(٣٨) ينظر : نفح الطيب : ١١٩/٧ – ١٢٠ .

(٣٩) ديوان ابراهيم بن الحاج النميري (إبراهيم بن عبدالله بن محمد المعروف بابن الحاج الغرناطي ت بعد سنة ٧٦٨ هـ) : تقديم وضبط : د. عبد الحميد عبدالله الهرامة ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ٢٠٠٣ : ٤٣ – ٤٥ .

(٤٠) في الأدب الأندلسي : ٢٨١ – ٢٨٢ .

(٤١) ديوان إبراهيم بن الحاج النميري : ٧٩ – ٨١ .

(٤٢) المصدر نفسه : ٩١ – ٩٥ .

(٤٣) ينظر : المصدر نفسه : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٩٧ .

(٤٤) ظهر الإسلام : أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ : ٣ / ٢٢٤ – ٢٢٥

(٤٥) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى : محمد بن تاويت ، دار الثقافة ، المغرب ، ١٩٨٤ : ٤٧٣/٢.

(٤٦) ينظر : فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ، المضامين والخصائص الأسلوبية : د. محمد مسعود جبران ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ : ٢ /٢٩ – ٣٠

(٤٧) الإحاطة في أخبار غرناطة : ٣ / ٧٧ – ٧٨ . إذ وردت الرسالة بشعرها ونثرها بشكل كامل .

(٤٨) ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام : لسان الدين بن الخطيب (محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني ت ٧٧٦ هـ) ، دراسة وتحقيق : د. محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط١ ، ١٩٧٣ : ٣٧٤ – ٣٧٥ .

(٤٩) المصدر نفسه : ٥٤٣ .

(٥٠) حياة الشعر في نهاية الأندلس : ٥٩٧ .

(٥١) العبر وديوان المبتدأ والخبر : عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨ هـ) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٥٩ : ٧ / ٦٩١ .

(٥٢) ينظر : الإحاطة في أخبار غرناطة : ٢ / ٧ .

(٥٣) ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام : ٢٨٣ – ٢٨٥ .

(٥٤) ينظر : الإحاطة في أخبار غرناطة : ٢ / ١٢ .

(٥٥) اللمحة البدرية في الدولة النصرية : لسان الدين بن الخطيب (محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني ت ٧٧٦ هـ) دراسة وتحقيق : د. محمد مسعود جبران ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٩ : ١٤٨ – ١٤٩ .

(٥٦) العبر وديوان المبتدأ والخبر : ٧ / ٣٠٩ .

(٥٧) فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب : ١ / ٥٠ .

(٥٨) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (في بلاد المغرب والأندلس) : لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق : د. أحمد مختار العبادي ، مطبعة جامعة الإسكندرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ : ٢١ .

(٥٩) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس : د. حسين مؤنس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، ١٩٨٦ : ٥٩٥ .

(٦٠) ينظر : ديوان ابن زمرك (محمد بن يوسف الصريحي ت بعد ٧٩٧ هـ) : تحقيق وتقديم : د. محمد توفيق النيفر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧ : ٤٣٠ – ٤٣١ .

(٦١) ينظر : الإحاطة في أخبار غرناطة : ٢ / ١٩٧ .

(٦٢) ينظر : دولة الإسلام في الأندلس ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين : ٧ / ١٦٢ .

(٦٣) ديوان ابن زمرك : ١٦٢ .

(٦٤) المصدر نفسه : ١٦٤ – ١٦٥ .

(٦٥) حياة الشعر في نهاية الأندلس : ٦٠٨ .

(٦٦) ديوان ابن زمرك : ٤٣٣ – ٤٣٤ .

(٦٧) المصدر نفسه : ٤٧٢ .

(٦٨) نشرت بتحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ١٩٥٤ ، ١٦ / .

(٦٩) ينظر : دولة الإسلام في الأندلس ، غاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين : ٧ / ١٦٢ .

(٧٠) ينظر : آخر أيام غرناطة (نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر) : مجاهد مجهول من المقاومة الإسلامية في غرناطة من القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، تحقيق وتقديم : د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ٢٠٠٢ : ١٢٨ .

(٧١) تنظر القطعتان في المصدر نفسه : ١٢٨ – ١٤٤ .

(٧٢) المصدر نفسه : ١٣٥ – ١٣٦ .

(٧٣) المصدر نفسه : ١٣٦ .

(٧٤) المصدر نفسه : ١٣٨ .

(٧٥) المصدر نفسه : ١٣٨ .

المصادر والمراجع

١- آخر أيام غرناطة (نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر) : مجاهد مجهول من المقاومة الإسلامية في غرناطة من القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، تحقيق وتقديم : د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ٢٠٠٢ .

٢- ابن الأبار ، حياته وكتبه : د. عبدالعزيز عبد المجيد ، طبعة معهد مولاي الحسن ، المغرب ، ١٩٥١ .

٣- الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب (محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني ت ٧٧٦ هـ) ، شرح وضبط وتقديم : د. يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٣

٤- أدب الرحلات عند العرب ، نشأته وتطوره ، ابن بطوطة أنموذجاً : مصطفى سالم عبدالله حبلوص ، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية ، طرابلس ، ليبيا ، ط١ ، ٢٠٠٩ .

٥- أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم : د . خضر موسى محمد حمود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١١ .

٦- الإسلام في المغرب والأندلس : ليفي بروفنسال ، ترجمة : د. محمود عبدالعزيز سالم ، ومحمد صلاح الدين حلمي ، مراجعة : د. لطفي عبد البديع ، مكتبة ومطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦.

٧- تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة : د. إحسان عباس ، دار الشروق ، الأردن ، ط٢ ، ١٩٩٧ .

٨- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس : د. حسين مؤنس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٩- حياة الشعر في غاية الأندلس : د . حسناء بوزويتة الطرابلسي ، دار محمد علي الحامي ، تونس ، ط١ ، ٢٠٠١ .

١٠-دولة الإسلام في الأندلس ، الخلافة الأموية والدولة العباسية : محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ومكتبة الأسرة ، القاهرة ، (د.ت) .

١١-ديوان إبراهيم بن الحاج النميري (إبراهيم بن عبدالله بن محمد المعروف بابن الحاج الغرناطي ت بعد سنة ٧٦٨ هـ) : تقديم وضبط : د. عبد الحميد عبدالله الهرامة ، المجمع الثقافي ، ابو ظبي ، ٢٠٠٣ .

١٢-ديوان ابن الأبار (محمد بن الأبار القضاعي ت ٦٥٨ هـ) قراءة وتعليق : د. عبدالسلام الهراس ، الدار التونسية ، ١٩٨٥ .

١٣- ديـــوان ابن زمـــرك (محمد بن يوسف الصريحي ت بعد ٧٩٧ هـ) : تـــحـقـيـــق وتـقـديـــم : د. محمد توفيق النيفر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧ .

١٤-ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام : لسان الدين بن الخطيب (محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني ت ٧٧٦ هـ) ، دراسة وتحقيق : د. محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط١ ، ١٩٧٣ .

١٥-ديوان يحيى بن حكم الغزال (يحيى بن حكم البكري الجياني الأندلسي الملقب بالغزال ت ٢٥٠ هـ) تحقيق وشرح وتقديم : د. محمد رضوان الداية ، دار قتيبة ، أبو ظبي ، ط١ ، ١٩٨٢ .

١٦-ظهر الإسلام : أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

١٧-العبر وديوان المبتدأ والخبر : عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨ هـ) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٥٩ .

١٨- فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ، المضامين والخصائص الأسلوبية : د. محمد مسعود جبران ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ .

١٩- في الأدب الأندلسي : د . محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٠ .

٢٠- قواعد النقد الأدبي : كرومبي ، ترجمة : محمد عوض محمد ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

٢١- اللمحة البدرية في الدولة النصرية : لسان الدين بن الخطيب (محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني ت ٧٧٦ هـ) دراسة وتحقيق : د. محمد مسعود جبران ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٩ .

٢٢- الماركسية والشعر : طومسون ، ترجمة : القشيني ، بغداد ، ١٩٥٩ .

٢٣- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (في بلاد المغرب والأندلس) : لسان الدين بن الخطيب، تحقيق : د. أحمد مختار العبادي ، مطبعة جامعة الإسكندرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٢٤-المطرب من أشعار أهل المغرب : ابن دحية (عمر بن حسن ت ٦٣٣ هـ) ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، و د. حامد عبدالمجيد ، ود. أحمد احمد بدوي ، مراجعة : د . طه حسين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٤.

٢٥- المُغرب في حُلى المَغرب : علي بن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥ هـ) ، تحقيق : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٢٦-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : المقري التلمساني (الشيخ أحمد بن محمد التلمساني ت ١٠٤١ هـ) ، تحقيق : د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط٥ ، ٢٠٠٨ .

٢٧-الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى : محمد بن تاويت ، دار الثقافة ، المغرب ، ١٩٨٤ .

الدوريات

١- شاعر الأندلس يحيى بن حكم البكري الغزال : عبدالقادر زمامة ، مجلة المورد ، بغداد ، المجلد ٨ ، العدد ٢ / ١٩٧٩ .

٢- يحيى بن الحكم الغزال ، سفير الأندلس وشاعرها الواقعي : د . حكمة علي الأوسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، المجلد ٢١، ١٩٧١ .